

حياة أعظم الرسل

محمد في بيت عمه أبي طالب

مُحَمَّدٌ فِي بَيْتِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ

إِنْتَقَلَ مُحَمَّدٌ إِلَى بَيْتِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ
بَعْدَ مَوْتِ جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَكَانَ
عُمُرُهُ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ . وَقَدْ وَفَى
أَبُو طَالِبٍ بِوَعْدِهِ لِأَبِيهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، وَاعْتَنَى
بِابْنِ أَخِيهِ كُلِّ عِنَايَةٍ . وَكَانَتْ أُسْرَتُهُ
(عَائِلَتُهُ) الَّتِي يُنْفِقُ عَلَيْهَا كَبِيرَةً . وَكَانَ
فَقِيرًا فَحَسُنَتْ حَالُهُ ، وَكَثُرَ رِزْقُهُ ، بَعْدَ

أَنَّ أَخَذَ ابْنَ أَخِيهِ إِلَى بَيْتِهِ . كَانَ أَبُو طَالِبٍ
يُحِبُّ مُحَمَّدًا أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لِأَوْلَادِهِ . إِذَا
خَرَجَ أَخَذَهُ مَعَهُ ، وَإِذَا نَامَ جَعَلَهُ بِجَانِبِهِ .
وَكَانَ رَحِيمًا بِمُحَمَّدٍ ، غَيُورًا عَلَيْهِ . وَقَدْ
شَارَكَتُهُ زَوْجَتُهُ فَاطِمَةُ فِي تَرْبِيَةِ رَسُولِ
اللَّهِ ، وَالْعِنَايَةِ بِهِ ، وَالْعَطْفِ عَلَيْهِ . وَحِينَمَا
مَاتَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْيَوْمَ
مَاتَتْ أُمِّي » . وَكَفَّنَهَا بِقَمِيصِهِ . وَقَدْ
اسْتَمَرَّ عَمُّهُ يُحَافِظُ عَلَيْهِ ، وَاللَّهُ يُحَرِّسُهُ ،
وَيَحْفَظُهُ مِنْ ذُنُوبِ أَهْلِ مَكَّةَ فِي ذَلِكَ

الوقت ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُ نَبِيًّا يَهْدِي
العَالَمَ كُلَّهُ .

وَفِي عَصْرِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَأْكُلِ النَّاسُ
عَلَى مَائِدَةٍ كَمَا نَفَعُ الْيَوْمَ . بَلْ كَانَ
الْأَطْفَالُ يَجْتَمِعُونَ حَوْلَ أُمِّهِمْ وَقَتَ
الطَّعَامِ . وَكُلُّ طِفْلِ يُحَاوِلُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ
الطَّعَامِ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ ، وَلَكِنَّ مُحَمَّدًا
لَمْ يَكُنْ مِثْلَ غَيْرِهِ ، فَكَانَ يَنْتَظِرُ ، وَيَأْخُذُ
مَا يُقَدِّمُ لَهُ مِنَ الطَّعَامِ ، وَهُوَ شَاكِرٌ
وَرَاضٍ بِمَا يَجِدُهُ .

كَانَ مُحَمَّدٌ قَوِيَّ الْجِسْمِ ، وَلَكِنَّهُ
لَمْ يَسْتَعْمِلْ قُوَّتَهُ مُطْلَقًا فِي ضَرْبِ
صَدِيقٍ ، أَوْ إِيْذَاءِ أَيِّ إِنْسَانٍ . وَمَعَ
صِغَرِ سِنِّهِ كَانَ يُحَاوِلُ مُسَاعَدَةَ كُلِّ
وَاحِدٍ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ . وَقَدْ اعْتَادَ
أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُشِيرُوا إِلَيْهِ بِأَنَّهُ الْغُلَامُ
الْكَامِلُ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .
وَتَمَنَّى كُلُّ أَبٍ مِنَ الْآبَاءِ أَنْ يَرَى أَبْنَاءَهُ
مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي كَلَامِهِ وَتَفَكِيرِهِ وَخُلُقِهِ
وَفِعْلِهِ .

رَعِيَهُ لِلْغَنَمِ وَهُوَ غُلَامٌ :

كُلُّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ كَانَ رَاعِيً غَنَمٍ ،
وَمُحَمَّدٌ كَانَ رَاعِيً غَنَمٍ . وَالْحِكْمَةُ فِي
رَعِيهَا تَعْوِيدُ الرَّاعِي حُسْنَ الْمُعَامَلَةِ ،
وَالشَّفَقَةُ وَالرَّأْفَةُ بِالرَّعِيَّةِ ، وَتَرْبِيَةُ مِيُولِهِ
وَطِبَاعِهِ ، حَتَّى يَكُونَ عَادِلًا فِي رِعَايَةِ
غَيْرِهِ .

سَفَرُهُ إِلَى الشَّامِ مَعَ عَمِّهِ :

وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً
مِنْ عُمَرِهِ اسْتَعَدَّ أَبُو طَالِبٍ لِلْسَّفَرِ إِلَى

دِمَشْقَ بِالشَّامِ فِي تِجَارَةٍ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ
تَاجِرًا . وَلَمْ يُفَكِّرْ فِي أَخْذِ مُحَمَّدٍ مَعَهُ ؛
لِأَنَّهُ خَافَ مِنْ أَنْ يَتَعَبَ مِنْ هَذِهِ الرِّحْلَةِ
الطَّوِيلَةِ الْمُتَعَبَةِ . وَلَكِنَّ مُحَمَّدًا أَظْهَرَ
لِعَمِّهِ رَغْبَتَهُ فِي السَّفَرِ مَعَهُ إِلَى الشَّامِ ،
فَرَّقَ لَهُ أَبُو طَالِبٍ ، وَأَخَذَهُ مَعَهُ . وَقَالَ :
وَاللَّهِ لَا أَخْرُجَنَّ بِهِ مَعِيَ ، وَلَا يُفَارِقُنِي
وَلَا أَفَارِقُهُ أَبَدًا . فَخَرَجَ بِمُحَمَّدٍ مَعَهُ حَتَّى
وَصَلَ إِلَى قَرْيَةٍ فِي جَنُوبِ الشَّامِ تُسَمَّى
بُصْرَى . فَوَقَفَ رِجَالُ الْقَافِلَةِ (الرِّجَالُ

الْمُسَافِرُونَ مَعًا) لِيَسْتَرِيحُوا وَتَسْتَرِيحَ
الْجِمَالُ . وَكَانَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ دَيْرٌ
لِلرُّهْبَانِ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ ، وَرَأَيْسُهُ رَاهِبٌ
إِسْمُهُ بَحِيرَى . وَهُوَ عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ
الْمَسِيحِيِّينَ . وَقَبْلَ أَنْ تَقِفَ الْقَافِلَةُ لِحَظِ
الرَّاهِبِ أَنَّ سَحَابَةً تُلَازِمُ وَاحِدًا مِنَ
الْقَافِلَةِ عَلَى الدَّوَامِ ، كَمِظْلَةٍ فَوْقَهُ
لِتَحْمِيهِ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ الشَّدِيدَةِ
صَيْفًا . وَقَدْ عَرَفَ بَحِيرَى مِنَ الْكُتُبِ
الدِّينِيَّةِ الَّتِي قَرَأَهَا أَنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ

لَا تَكُونُ مِظْلَةً إِلَّا لِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . فَلَمَّا
رَأَى الرَّاهِبُ ذَلِكَ أَمَرَ بِإِعْدَادِ وَلِيمَةٍ
كَبِيرَةٍ لِتُجَارِ مَكَّةَ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ
يَدْعُوهُمْ لِيَتَنَاوَلُوا الْغَدَاءَ مَعَهُ فِي الدَّيرِ ،
وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَحْضُرُوا جَمِيعًا .

وَكَثِيرًا مَا كَانَ تُجَارُ مَكَّةَ يَمُرُّونَ بِهِ
قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ فَلَا يُكَلِّمُهُمْ ، وَلَا يَتَّصِلُ
بِهِمْ ، حَتَّى كَانَ ذَلِكَ الْعَامُ (السَّنَةُ) ،
فَدَعَاهُمْ إِلَى الطَّعَامِ .

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ : مَاذَا حَدَّثَ الْيَوْمَ

يَا بَحِيرَى ؟ إِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا مَعَنَا
مِنْ قَبْلُ . وَقَدْ كُنَّا نَمُرُّ بِكَ كَثِيرًا
فَلَا تَدْعُونَا . أَجَابَ بَحِيرَى : صَدَقْتَ ،
وَلَكِنَّكُمْ ضَيُّوفٌ . وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ
أَكْرِمَكُمْ وَأَصْنَعَ لَكُمْ طَعَامًا ، فَتَأْكُلُوا مِنْهُ
جَمِيعُكُمْ . فَاجْتَمَعُوا عِنْدَهُ ، فَسَأَلَهُمُ
الرَّاهِبُ : هَلْ حَضَرَ الْجَمِيعُ ؟ فَأَجَابَ
التُّجَّارُ : إِنَّهُمْ حَضَرُوا وَلَمْ يَتَخَلَّفْ
إِلَّا غُلَامٌ سِنَّهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً .

فَقَالَ الرَّاهِبُ : أَدْعُوهُ . وَيَجِبُ أَنْ

يَحْضُرُ مَعَكُمْ . فَقَامَ عُمَةُ الْحَارِثُ بْنُ
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَاحْتَضَنَهُ ، وَأَحْضَرَهُ ،
وَأَجْلَسَهُ مَعَهُمْ . فَلَمَّا وَصَلَ مُحَمَّدٌ نَظَرَ
إِلَيْهِ بِحِيرَى نَظْرَةً دَقِيقَةً ، وَأَخَذَ يَسْأَلُهُ عَنْ
أَشْيَاءَ : عَنْ حَالِهِ ، وَنَوْمِهِ ، وَهَيْئَتِهِ ،
وَأُمُورِهِ ، وَيُخْبِرُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيُؤَافِقُ ذَلِكَ
مَا عِنْدَ بِحِيرَى فِي أَوْصَافِهِ الَّتِي فِي كُتُبِهِ
الدِّينِيَّةِ . فَلَمَّا انْتَهَى بِحِيرَى مِنَ الْأَسْئَلَةِ
وَسَمِعَ الْأَجْوَبَةَ أَخَذَ أَبَا طَالِبٍ وَابْنَ أَخِيهِ
عَلَى انْفِرَادٍ وَقَالَ : هَذَا هُوَ خَاتَمُ الرُّسُلِ .

فَسَأَلَهُ أَبُو طَالِبٍ : كَيْفَ عَرَفْتَ هَذَا ؟
فَأَجَابَهُ الرَّاهِبُ :

إِنَّ الْعَلَامَاتِ الَّتِي يَتَّصِفُ بِهَا خَاتَمُ
الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِنَا . وَإِنَّ
السَّحَابَةَ لَا تُظِلُّ غَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ . وَحِينَمَا
قَرَبْتُمْ مِنَ الدَّيْرِ رَأَيْتُمْ سَحَابَةً تُظِلُّ
شَخْصًا مِنَ الْقَافِلَةِ . فَاعْتَقَدْتُ أَنَّ
الرَّسُولَ الَّذِي ذُكِرَتْ أَوْصَافُهُ فِي كُتُبِنَا
الْمُقَدَّسَةِ — مَعَكُمْ . وَلِهَذَا السَّبَبِ قَدْ
دَعَوْتُكُمْ لِكَيْ أَرَاهُ وَأُقَابِلَهُ .

ثُمَّ قَالَ بَحِيرَى لِأَبِي طَالِبٍ : مَا صِلَةٌ
هَذَا الْغُلَامِ بِكَ ؟ قَالَ أَبُو طَالِبٍ : إِنَّهُ
إِبْنِي .

قَالَ بَحِيرَى : لَيْسَ هُوَ ابْنُكَ .
وَمَا يَنْبَغِي لَهُذَا الْغُلَامِ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ
حَيًّا . فَعَجِبَ أَبُو طَالِبٍ ؛ وَقَالَ : إِنَّهُ ابْنُ
أَخِي .

قَالَ بَحِيرَى : مَاذَا فَعَلَ أَبُوهُ ؟
قَالَ أَبُو طَالِبٍ : إِنَّ أَبَاهُ قَدْ مَاتَ وَأُمُّهُ
حُبْلَى . وَإِنَّ أُمَّهُ قَدْ مَاتَتْ وَعُمُرُهُ سِتُّ

سَنَوَاتٍ . قَالَ بَحِيرَى : صَدَقْتَ ، ثُمَّ رَفَعَ
قَمِيصَ مُحَمَّدٍ مِنْ فَوْقِ ظَهْرِهِ ، فَرَأَى بَيْنَ
كَتِفَيْهِ عِلَامَةً أَوْ خَاتَمًا .

فَقَالَ : إِنِّي مُتَأَكِّدٌ تَمَامًا أَنَّ هَذَا الْغُلَامَ
سَيَكُونُ خَاتَمَ الرُّسُلِ ، الَّذِي يَنْتَظِرُهُ
الْيَهُودُ وَالْمَسِيحِيُّونَ ، وَقَدْ تَنَبَّأَتِ الْكُتُبُ
الْمُقَدَّسَةُ — الَّتِي جَاءَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ —
بِقُرْبِ مَجِيئِهِ .

ثُمَّ نَصَحَ لِأَبِي طَالِبٍ أَنْ يُعْنِيَ بِمُحَمَّدٍ
عِنَايَةً خَاصَّةً ، وَقَالَ لَهُ : إِرْجِعْ بِابْنِ أَخِيكَ

إِلَى بَلَدِهِ ، وَاحْذَرُ عَلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِ ،
وَاحْتَرِسْ مِنْهُمْ . فَوَاللَّهِ لَئِنْ رَأَوْهُ وَعَرَفُوا
مِنْهُ مَا عَرَفْتُ لَيُؤْذُوهُ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ
الْإِيذَاءِ ؛ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لِابْنِ أَخِيكَ هَذَا
شَأْنٌ عَظِيمٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . فَاسْرِعْ بِهِ .
جَاءَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ عَرَضًا ، فَازْدَادَتْ
عِنَايَةُ أَبِي طَالِبٍ بِمُحَمَّدٍ الْعَظِيمِ . وَلَمْ
يَبْقَ فِي الشَّامِ مُدَّةً طَوِيلَةً . وَأَسْرَعَ فِي
بَيْعِ مَا كَانَ مَعَهُ ، وَاشْتَرَى مَا أَرَادَ
شِرَاءَهُ . وَرَجَعَ بِهِ سَرِيعًا إِلَى مَكَّةَ . وَلَمْ

يَخْرُجُ بِهِ فِي سَفَرٍ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ خَوْفًا
عَلَيْهِ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى
يَقُولُونَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُرْسَلَ الرَّسُولُ . فَلَمَّا
أَرْسَلَهُ اللَّهُ لِهِدَايَةِ الْعَالَمِ وَإِصْلَاحِهِ
أَنْكَرُوا رِسَالَاتَهُ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « فَلَمَّا
جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
الْكَافِرِينَ » .

وَقَدْ حَفِظَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْمُخْتَارَ فِي
حَيَاتِهِ الْأُولَى قَبْلَ الرِّسَالَةِ . وَكَانَ يَأْكُلُ
مِمَّا يَأْكُلُهُ قَوْمُهُ ، وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ

كَمَا يَمْشُونَ ؛ كَيْ يَعْرِفَ أَخْلَاقَ
النَّاسِ ، وَمُيُولُهُمْ وَعَادَاتِهِمْ .

وَقَدْ عَمِلَ مُحَمَّدٌ طَوْلَ حَيَاتِهِ عَلَى
نَشْرِ الْمَبَادِيءِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْقُلُوبِ ،
كَمَحَبَّةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَمُسَاعَدَةِ
الْيَتَامَى وَالْمُحْتَاجِينَ ، وَحِمَايَةِ الضُّعَفَاءِ
مِنْ ظُلْمِ الطُّغَاةِ وَالظَّالِمِينَ .

وَهَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ
الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَقَدْ أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى ،
وَلِيَتَمَّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ .